صور صريحة — لمرابع الرشور

كنفوشيوس

للكاتب الاميركي ول ديورانت

هل تدري ايها القارئ الكريم ان حضارة الصين وثقافتها ما زالت منشورة العلم متصلة الحلقات من اربعة آلاف سنة الى الآن؟ نشأت هذه الحضارة حين شرع الفراعنة يبنون الاهرام وترعرعت لما دالت دول الامبراطورية الليلية وزهت وازدهرت فانجبت رجالاً مثل كنفوشيوس ولاوتسو قرناً كاملاً قبل ظهور سقراط وافلاطون في بلاد اليونان. استنبط اباؤها الطباعة خمسة قرون قبل غوتنبرج وصنعوا البوصلة خمسمائة سنة قبل كولمبوس وكشفوا عن البارود قبل المسيحيين ومن مجدهم انهم لم يستعملوه الا في الالعاب النارية واحتفظوا بكنز مؤلف من ٥٤ الفاً من المخطوطات في الخزانة الامبراطورية لما كانت رومية اطلالاً؟ واذ خيم الجمود على اوربا في القرون الوسطى قام في الصين الوف من الشعراء ينشدون آمال الحياة وآلامها في شعر غنائي ساحر وابتدعوا الشعر المرسل ونشأت طائفة من رجال الفن فصوروا صوراً يلتوافيها قمة الابداع وصنعوا خزفاً لا يعدل جمالهُ جمال. ما اعظم هذه الحضارة! انها اطول الحضارات عمراً ولعلها اعمقها فلسفة! فما هو سر عظمتها؟

لنجسم هذا السر ولندعهُ كنغ فوتسه — كنغ المعلم — كنفوشيوس. انك لا تقع على رجل في التاريخ ترك اثراً في امته ومنشآتها الاجتماعية ومثلها الروحية كاثر كنفوشيوس في الصين. هو فيلسوف يعترف لهُ المفكرون بسمو الفكر وصواب النظر. وهو معلم عظيم يقرُّ لهُ الامبراطرة العظام بذلك. يحفظ الوف الوف الطلاب كتبهُ كلَّ سنة عن ظهر قلب فيتأثرون بفكره واسلوبه وتسم نفوسهم بسمته. كان فيلسوفاً اديباً لا واعظاً دينياً. ودعوته ابناء قومه الى الاخذ بأسباب الحياة النبيلة والجري على خطة الرفق واللطف والاعتدال ومحبة السلام والسعي لتوطيد اركانه كانت مبنية على بواعث زمنية لا على اعتبارات خارجة عن الطبيعة. لذلك الهوهُ بعد موته وعبدوه

ولد سنة ٥٥٢ ق. م: في عصر حلت فيه الفوضى في الصين محل مجدها القديم فتمزقت

تلك البلاد دويلات دويلات يسودها النزاع والحرب . فنهض على عاتقه ان يعيد اليها النظام والوئام بالدعوة الى تهذيب النفس وتثقيف العقل وتنظيم الحياة الفردية . قال

« ان الاقدمين الامجاد كانوا اذ ارادوا أن يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون احوال ممالكهم . وقبل ان ينظموا احوال ممالكهم كانوا ينظمون احوال اسرهم . وقبل ان ينظموا احوال اسرهم كانوا يهذبون اخلاقهم وقبل ان يهذبوا اخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم. وقبل ان ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم منزهين في اغراضهم. وقبل ان يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين كانوا يوسعون معارفهم وتوسيع المعرفة كان يجيء عن طريق البحث والمشاهدة. شاهدوا الاشياء والاعيان فاكتسبت معارفهم ولما اكتسبت معارفهم خلصت افكارهم وتنزهت اغراضهم فتهذبت اخلاقهم فنقيت نفوسهم فانتظمت اسرهم . ولما انتظمت اسرهم انتظمت دولهم ولما انتظمت دولهم اصبحت الارض كلها تمرح في السعادة والوئام »

هذه فلسفة ادبية صحيحة في بضعة اسطر. نعم انها فلسفة محافظة تعلي كثيراً من شأن العادات الاجتماعية وقيودها . انهُ يعتقد ان حسن السلوك منبع الفضائل جميعها . حتى لقد ذهب الى ان القاتل او السارق يجب ان يقيد بادب القتلة او السارقين. وهذا لا يتفق ونزعاتنا في هذا العصر الديمقراطي ولكن دعنا ننظر اليه كما رآه احد تلاميذه فقال في وصفه :

« ارأيت المقدرة تطلب التعلم من الجهل. والاكتفاء جالساً عند موطنه قد يبلى النقصان. الرجل المتصف بكل فضيلة وهو يظن انهُ لا يتصف بفضيلة ما. متين الخلق ولكنهُ يحسب نفسهُ صفراً . يسطو عليه الناس ولكنهُ لا ينتقم ولا يشعر بوجوب الانتقام » : هذا هو كنفوشيوس في نظر تلاميذه . ويقال ان تلميذاً وجه اليه سؤالاً قال فيه « انجازي الشر بالخير » فقال « كيف تجازي اللطف اذاً ؟ جازِ الخير بالخير وجازِ الشر بالعدل » وكان ينتقد قبل افلاطون ان اكبر حظ يصيبه شعب من الشعوب هو اقصاء الجهال عن المناصب واحلال الحكماء

انتخب سنة ٥٠١ حاكماً لمدينة تشنج تو «فحدث اصلاح عجيب على اثر توليه الحكم فيها ، في عادات الشعب واخلاقه . . . . واصبحت الامانة وحسن النية من ميزات الرجال واللعفة واللطف من صفات النساء » فاختير على اثر ذلك وزيراً للعدل عند الامير لو . ولكن الانسان لا يخلو من اضداد ولو حاول العزلة في رأس الجبل فدبر له اضداده مكيدة . ذلك انهم ارسلوا الى اميره طائفة

مختارة من الخطايا فيهره جاهل فنسي وصايا وزيره الحكيم وتعاليمه وضرب باحتجاجه عرض الحائط فاستقال الوزير الحازم من منصبه لان مذهبه في الحكم كان يقوم على جعل الحاكم مثلاً ينسج على منواله واختار لنفسه النفي والعزلة وهو يقول: «لم الق رجلاً بعد يحب الفضيلة قدر حبه للجمال.» ولما توفي كان قد بلغ الثالثة والسبعين فدفنه اتباعه في احتفال مهيب لانهم كانوا قد ادركوا عظمته وقيمة تعاليمه وبنى جمهورهم اكواخاً على مقربة من مدفنه واقاموا فيها ينوحون على فقده ثلاث سنوات متوالية

غرائب الطبيعة وعجائب المخلوقات

طائر القيثارة

من عجائب المخلوقات طائر استرالي يدعى «طائر القيثارة» وهو ثلاثة انواع تقطن شرق استراليا وجنوبها ولا تقطن بلاداً اخرى على ما يُعلَم. واكبر هذه الانواع النوع الذي يقطن نيوسوث ويلز (وهو المرسوم هنا) طول الذكر منه نحو ثلاث اقدام (٣٣ بوصة عند التدقيق). اما لونه فبني ضارب الى الاصفر البرتقالي يحمر لدى اقترابه الى العنق ويضرب الى الرمادي المحمر في ريش الظهر. أما اللون حول العينين فرصاصي ضارب الى الزرقة وأما لون الريشتين اللتين يتألف منهما جانبا القيثارة في الذنب فكستنائي غامق وعلى ابعاد متساوية من داخلها تعلع مسننة تكاد تكون شفافة

هذا الطائر يعيش في الغالب على الارض ويؤثر المشي والعدو على الطيران مع انه يستطيع الطيران اذا اقتضى الامر. ويقال ان عضلات رجليه قوية تمكنه من الوثب في الجو الى ارتفاع عشر اقدام. فاذا مشى كان ذنبه افقيًّا مستوياً. وهو يستعمله لاغواء الانثى بجماله وابهته ولكنه لا يتخذ الا زوجة واحدة. فاذا كان امام زوجته جعل يتبختر ويدور ويرقص رافعاً ذنبه ومرخياً جناحيه ضارباً الارض بمنقاره ومخرجاً اصواتاً كصوت الديك الرومي

اما عشه فبنى عادة من قضبان وعشب واوراق في شق بين الصخور او على انقاض كبيرة من الخشب او في جذع شجرة ضخمة حيث تتفرع اغصانها ويكون له قبة اوسقف